عبدالرحمن الخميسى (٢)

سيناء كانت لنا أمانا
فكيف أصبحت لنا الهوانا
من قصيدة طويلة للخميسى
أدان فيها كامب ديفيد

فى العدد الماضى تركنا الخميسى وهو يطرق أبواب الشهرة ليصبح واحدا من ألمع الكتاب والصحفيين عندما تألق على صفحات جريدة المصرى التى كانت الصحيفة الأكثر شهرة ويروى الخميسى فى حوار معه «بدأت علاقتى بالمصرى وتوزيعه عشرة آلاف نسخة، فلما بدأ نشاطى فيه زاد توزيعه للغاية، فأطلق أحمد أبوالفتح يدى فى إدارة التحرير فألحقت بالعمل عددا من الصحفيين الشبان منهم عبدالرحمن الشرقاوى - يوسف إدريس - حسن فؤاد ولعلك تلاحظ أنها اسماء يسارية وهكذا وعبر علاقتى بهم وبغيرهم بدأت علاقتى بمنظمة حدتو» (حوار معه أجرى فى ١٩٧٢/١١/٢ فى بغداد) ويمضى الخميسى «لكن بداياتى السياسية كانت مع الحزب الوطنى، ومع سطوع نجمى كصحفى أصبحت عضوا فى اللجنة الإدارية العليا للحزب ويمكن القول إننى كنت آنذاك وطنيا متطرفا»، وسألته بشكل مباشر كيف أصبحت شيوعيا؟ فأجاب «فى عام ١٩٥٠ دعيت للانضمام إلى المجلس المصرى للسلام فوافقت على الفور خاصة أن سكرتيره العام كان يوسف حلمى وكان معى فى اللجنة الإدارية العليا للحزب الوطنى، وجاءت أحداث ١٩٥١ وتكاتفت أمور شتى، منها مصر الملتهبة بحماس وطنى جارف تبحث عبره عن طريق للخلاص ثم هناك علاقتى بالمثقفين اليساريين وخاصة حسن فؤاد، وبدأت القراءة فى الفكر الماركسى وكأن طاقة ضوء تألقت فى ذهنى وامتزج فى نفسى حس الشاعر الرومانسى مع عشق الوطن والأمل فى مستقبل سعيد لشعب بلادى.. وضمنى حسن فؤاد إلى حدتو».

وفى هذه الأثناء يموت الرفيق ستالين، وتصدر حدتو عددا خاصا من نشرتها السرية «الكفاح» وفيه مقال موقع باسم خالد محمد خالد وعنوانه «طبت حيا وميتا يا رفيق» وإلى جواره مقال بعنوان «وقفة الخشوع يا رفاق» والتوقيع حنفى، ولأن أسلوب الخميسى المتميز معلوم للكثيرين فقد عرفوا أن «حنفى» هو الخميسى وتأتى ثورة يوليو وتلتهب شرارة الصدام الأولى عبر كتابات الخميسى فى «المصرى» فيصدر مجلس الثورة قرارا بمنعه من الكتابة فيكتب بلا توقيع وينتهى الأمر بإغلاق المصرى، ويقبض على الخميسى.. وعن رحلة السجن يقول الخميسى فى حواره «استدعانى عبدالناصر من السجن وبدأ اللقاء بعتاب هادئ من عبدالناصر، عاجبك كده قلبت الدنيا علينا وانت اللى حركت جريدة المصرى ضدنا. وتسببت فى إغلاق المصرى وفى سجن كثيرين»، وفى مجرى الحوار سألته «لماذا أمرتم بفصلى من المصرى قبل إغلاقها فأجاب ببساطة السفارة الأمريكية هى اللى طلبت وحمل الطلب إلينا يوسف صباغ»، ويمضى الخميسى وتعلو نبرته الخطابية ونحن فى بيته فى بغداد ويقول «كنت أغلى من قبول الرضوخ للسفارة الأمريكية واحتدت كلماتى واحتد عبدالناصر، وانتهى اللقاء والغريب أن عبدالناصر أنهاه بسؤال «مش عايز حاجة؟ فقلت لأ، وأعادونى إلى السجن» ويبقى أن أروى أنا حكايتى معه، فيما الرجل يتألق كاتبا هو الأكثر شهرة نجحت حدتو فى أن تقوم بتهريب عديد من كوادرها الأساسيين من معتقل روض الفرج، أحدهم ضياء بدر قفز دون احتراز فكسرت ساقه التقطه الرفاق وضعوا ساقه فى الجبس ولكن أين يضعوه هو؟ وتقرر أن يأتوا به عندى فى شقة أقمت فيها أنا ومحمود العطار فى دير الملاك، ولأننا اضطررنا لترك القاهرة بعد انتهاء العام الدراسى كلفت أن أنقله إلى بيت عبدالرحمن الخميسى، أخذت ضياء فى تاكسى وتركته فى التاكسى أمام العمارة التى وصفوها صعدت إلى الشقة التى حدودها، طرقت. فتح الباب وأطل الخميسى الذى لا تخطئه العين، قلت ما أمرونى أن أقول «خالى حنفى موجود» وصعقت عندما جاء الجواب مندهشا «حنفى مين يا ابنى؟ كررت السؤال وكرر إجابة مشحونة بأداء تمثيلى أفزعنى فقررت أن أهرب وفيما استدير لأقفز على السلم جاءت ضحكة صافية «تعالى يا ولد» وصعدت بضياء والخميسى يقول «يا ابنى انت لسه صغير على الحاجات دى»، ونعود إلى السجن الوحشى والعذاب والتعذيب ويخرج الخميسى من السجن ليتألق وبلا حدود فى كل مجالات الفن.. يكتب مقالات ومسرحيات وأفلام

وسيناريوهات ويؤلف مقطوعات موسيقية ويخرج أفلاما ومسرحيات.. ويقول «كنت أكتب القصة والسيناريو وأخرج الفيلم وأعد الموسيقى التصويرية مؤكدا أن الفيلم بقصته وإخراجه وموسيقاه هو وحدة واحدة ككتاب لا يمكن أن يكتبه كاتبان، ويعلق الناقد الشهير عميد الإمام على فيلمه «الجزاء» أن الخميسى قد أكد لنا أن الفيلم المرتبط بالقضايا الوطنية يمكنه أن يحقق نجاحا شعبيا كاسحا. ويكون اكتشافه المثير لسعاد حسنى وتدريبه لها على التمثيل والغناء والرقص محققا لذات النجاح، وفى هذه الأثناء يتزوج من فاتن الشوباشى لكنها لا تلبث أن ترحل فى حادث حريق، ويخيم حزن كثيف على الخميسى ليعالج مأساته ممتزجة بمأساة وطنه وشعبه فيكتب قصائد من نوع..

«فاتن

إنى أمضى نحو الوحدة

فوق جواد الظلمة

فالوحدة خيمة معتزل

مغترب القلب»

ثم يمضى

كنا نغلق باب البيت علينا

نصنع من أحلام فؤادينا

دنيا أخرى تتفتح كالورد

أمام الثورة فى العالم

دنيا أخرى

لا يأكل فيها السلطان لحوم رعاياه

أو يقتل عسكره فى وهج الشمس رعاياه

ويأتى السادات وتأتى كامب ديفيد وتكون قصيدته عن سيناء فيطرد من الجمهورية ويصدر قرار بالقبض عليه فيفلت إلى بيروت ومنها إلى بغداد ثم إلى موسكو ويبقى ماركسيا حتى آخر قطرة من حياته

هذا الطريق عرفته، وقحمت فيه رماحه

وصخوره ذاقت دمى، لكن عشقت كفاحه

ويرحل الفارس الفنان، وتأتى فى منتصف الليل مكالمة من موسكو «الخميسى توفى ووصيته أن يقيم التجمع مأتمه ويتلقى رجاله العزاء وأن يقام له مدفن فى المنصورة حيث مراتع صباه ويوصى أن يتولى رفعت السعيد تنفيذ هذه الوصية».

ونحنى رأسنا احتراما وننفذ الوصية